شرح قصيدة داء ألم فخلت فيه شفائي

إنّ قصيدة داءٌ ألمَّ فخلتُ فيه شفائي هي قصيدة همزية نظمها الشاعر خليل مطران على البحر البسيط، وهي تتألف من أربعين بيتًا، نذكر منها الأبيات المشهورة وشرحها:

- **داءٌ ألَمَّ فَخِلْتُ فِيهِ شَفَائِي / / / مِنْ صَبْوَتِي فَتَضَاعَفَتْ بُرَحَائِي**
  يَا لَلضَّعِيفَيْنِ اسْتَبَدَّا بِي وَمَا / / / فِي الظُّلْمِ مِثْلُ تَحَكُّمِ الضُّعَفَاءِ

يتحدث الشاعر عن المرض الذي أصابه وظن أنّ هذا المرض سوف يكون سببًا في شفائه من المعاناة التي يعانيها، وظنّ أنّ هذا المرض هو الذي سوف ينسيه لوعة فراق الأحباب، ولكنّ الذي حصل هو عكس ذلك تمامًا، حيث زادت المعاناة بشكل كبير وزاد العذاب، ثم يقول الشاعر: هذا الضعيفان تحكما بي وليس في هذه الحياة ظلم أكثر من تحكم الضعفاء بالشخص، والضعيفان هما الحب والمرض.

- **قَلْبٌ أَذَابَتْهُ الصَّبَابَةُ وَالْجَوَى / / / وَغِلاَلَةٌ رَثَّتْ مِنِ الأَدْوَاءِ**
  وَالرُّوْحُ بيْنَهُمَا نَسِيمُ تَنَهُّدٍ / / / فِي حَالَيَ التَّصْوِيبِ وَ الصُّعَدَاءِ

يأتي الشاعر خليل مطران هنا على وصف حاله؛ فيول: القلب الذي أصابه الحب والعشق، وجسد صار رثًا متهالكًا من كثرة الأدواء، والروح بين القلب والجسد تخرج أنفاسها الأخيرة، فالروح التي تعيش بين صراع بين قلب متعب وجسد متعب، سوف تعاني في النهاية وتنتهي شيئًا فشيئًا.

- **وَالعَقْلُ كَالمِصْبَاحِ يَغْشَى نُورَهُ / / / كَدَرِي وَيُضْعِفُهُ نُضُوبُ دِمَائِي**
  هَذَا الَّذِي أَبْقَيْتِهِ يَا مُنْيَتِي / / / مِنْ أَضْلُعِي وَحَشَاشَتِي وَذَكَائِي

يأتي الشاعر في البيت الأول من هذين البيتين على وصف عقله؛ فيقول: إنّه كالمصباح الذي يبث الأسى والحزن بدلًا من النور الضياء، فالكدر الذي يعاني منه الشاعر غطّى على نور العقل وأضعفه، ثم يخاطب الشاعر المحبوبة؛ فيقول لها: هذا ما أبقيته لي يا محبوبتي من معاناة ومآسي، فقد أتعبتِ قلبي وأنهكتِ بِلي جسدي.

- **إِنِّي أَقَمْتُ عَلى التَّعِلَّةِ بِالمُنَى / / / فِي غُرْبَةٍ قَالوا تَكُونُ دَوَائِي**

في هذا البيت الشعري مواساة واضحة من الشاعر لنفسه؛ فيقول: إنّني سوف أقيم على التعلل بالمنى والأحلام التي سوف تأتي، في هذه الغربة القاسية التي أعيشها بعيدًا عن أهلي وأحبابي، وكنت أظن أنّ هذه الغربة دواء لأمراضي، ولكنّها كانت مرضًا يُضاف إلى أدوائي التي أعاني منها.

- **إِنْ يَشْفِ هَذَا الْجِسْمَ طِيبُ هَوَائِهَا / / / أَيُلَطِّفُ النِّيرَانَ طِيبُ هَوَاءِ**
  أَوْ يُمْسِكُ الْحَوْبَاءَ حُسْنُ مُقَامَهَا / / / هَلْ مَسْكَةٌ فِي البُعْدِ لِلْحَوْبَاءِ

يطرح الشاعر خليل مطران في هذين البيتين بعض الأسئلة؛ فيقول: إذا كان هواء الغربة سوف يشفي هذا الجسم العليل كما زعم الناس الذين نصحوني بالاغتراب، فهل هذا الهواء وطيبه سوف يلطف النيران التي تغلي في جسدي، وهل الغربة قادرة على جبر كسر نفسي، وهل هي قادرة على جعلي لا أفكر في المحبوبة وبالمسافات التي تفصل بيني وبينها.

- **عَبَثٌ طَوَافِي فِي الْبِلاَدِ وَعِلَّةٌ / / / فِي عِلَّةٍ مَنْفَايَ لِاسْتِشْفَاءِ**
  شاكٍ إِلى البَحْرِ اضْطِرَابَ خَوَاطِرِي / / / فَيُجِيبُنِي بِرِيَاحِهِ الهَوْجَاءِ
  ثاوٍ عَلَى صَخْرٍ أَصَمَّ وَلَيْتَ لِي / / / قَلْباً كَهَذِي الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ

يقول الشاعر في هذه الأبيات إنّ طوافه في هذه البلاد عبث لا طائل منه، وهو مرض في مرض، فالغربة والمنفى لا فائدة منهما ولا شفاء من هذه الأمراض في هذه الغربة القاسية، ثم يشكو الشاعر للبحر الاضطراب الذي يعاني منه في خاطره، فيجيبه

البحر باضطراب أكبر، وهو اضطراب رياحه وأمواجه، ثم يقول الشاعر: إنني واقف أو جالس على صخرة صماء في هذا الشاطئ، ويا ليت لي قلبًا يشبه هذه الصخرة الصماء، فلا يحنّ إلى أحد ولا بلد ولا محبوبة.

- **يا لَلْغُرُوبِ وَمَا بِهِ مِنْ عَبْرَةٍ / / / لِلْمُسْتَهَامِ وَعِبْرَةٍ لِلرَّائي**
  وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالنَّهَارُ مُوَدِّعٌ / / / وَالْقَلْبُ بَيْنَ مَهَابَةٍ وَرَجَاء
  وَكأَنَّنِي آنَسْتُ يَوْمِيَ زَائِلاً / / / فَرَأَيْتُ فِي المِرْآةِ كَيْفَ مَسَائي

يصف الشاعر في هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة مشهد الغروب على شاطئ البحر، وكم به من عبرة للعائق الهيمان وعبرة للرائي، ثم يتذكر المحبوبة والنهار في آخر دقائقه يودع؛ حيث كان قلب الشاعر بين الخوف والرجاء، بين اليأس والأمل، متأرجحًا في هذا المنظر المهيب، ثم يقول إنّني في هذه اللحظة شعرت أنّني آنست يومي وهو زائل وأدركت ما سوف يحل بي في المساء من الأمور التي حصلت معي في النهار.